حين تعطي الجميع... ولا يتبقى لك أحد.

ما تبقى مني

بقلم

محمد ابو الفتوح

مقدمة

إلى كل من يعرفني معرفة شخصية...

هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية، وليس اعترافًا صريحًا،

ولا محاولة لتوثيق ما حدث حرفيًا.

إنه عمل أدبي قبل كل شيء، كُتب من أعماق الفراغ أكثر مما كُتب من الذاكرة،

ومن الوجع المكبوت أكثر مما كُتب من الوقائع،

ومن التأمل الطويل في حضرة العدم.

قد يجد البعض بين سطوره شظايا مني،

أو ومضات مما يظنونه يعرفونه عني،

لكن ليست كل الشخصيات حقيقية،

ولا كل الأحداث وقعت بالضبط كما رويت،

ولا كل الكلمات نُطقت يومًا على لساني.

ومع ذلك

...لا أنكر أن تجربتي الشخصية تركت أثرها الثقيل في كل حرف من هذه الصفحات .

تركت صمتها، وتركت ندوبها،

وتركت ذلك الفراغ الذي يتردد صداه بين السطور.

لهذا، ربما يحمل هذا الكتاب بعضًا من ما تبقى مني،

وبعضًا من أيامي التي سُرقت بهدوء،

وبعضًا من الانهيار الذي لم أعد أستطيع إخفاءه.

لكنه يبقى في النهاية عملًا أدبيًا، تتشابك فيه الحقيقة المُرة مع الخيال،

وتختلط فيه الذكرى بالتأمل، ويولد من بينهما عالم اسمه:

»ما تبقى مني.«

هنا... لن تجد عذراً للناس .بل ستجد كل وجوههم الحقيقية بعد أن سقطت الأقنعة.

هنا ...نسقط الأسماء من علوّها، ونُجَرّد الكلمات من زينتها، ونكشف أن «الكل» كانوا يمدّون يدهم لا للمصافحة، بل ليأخذوا قطعة أخرى منك.

افتتاحية الكتاب

ها أنا أفتح هذا الكتاب،
لا لأحكي قصة...
بل لأترك أثرًا يشبه الندبة في ذاكرة من يقرأ.

ستظن في البداية أن الكلمات عابرة،
لكنّ بعض النصوص لا تُقرأ...
بل تستقر في الداخل كحقيقة متأخرة.

أنا لا أكتب لأُقنع أحدًا،
ولا لأستعطف قلبًا،
ولا لأجمع التصفيق من أفواه اعتادت الضجيج.

أنا أكتب لأن الصمت حين يمتلئ أكثر من اللازم،
يتحوّل إلى لغة.

في هذه الصفحات
لن تجد بطلًا مثاليًا،
ولا عاشقًا هشًّا،
ولا إنسانًا يعتذر عن قوّته.

ستجد عقلًا
تعلّم من الخسارات كيف يقف،
ومن الخذلان كيف يرى،
ومن الوحدة كيف يصبح كافيًا لنفسه.

كل ما سيُكتب هنا
ليس انفعالًا عابرًا،
بل بقايا معارك
خرجتُ منها أقلّ ضجيجًا...
وأكثر هيبة.

فإن دخلت هذا الكتاب،
ادخله كما يدخل المرء مكانًا
يعرف أنه لن يخرج منه كما كان.

لا تبحث هنا عن المواساة،
فهذا الكتاب لم يُكتب ليُربّت على هشاشة أحد،
ولم يُخلق ليكون ملجأً للعابرين.

هنا...
ستجد الكلمات كما تُولد بعد النجاة من الحريق؛
حارّة،

حادّة،
وصادقة إلى الحد الذي قد يزعجك.

أنا لا أكتب لأنني أحب الحديث،
بل لأن بعض الصمت
حين يطول أكثر مما ينبغي،
يتحوّل إلى شيء يشبه الاختناق.

وما وراء الصمت
ليس هدوءًا كما يظن الجميع...
بل ضجيج كامل
لم يسمعه أحد.

في هذا الكتاب
لن أُجمّل الخيبة،
ولن أُقدّس الرحيل،
ولن أُلبس الألم ثوب الحكمة الكاذبة.

سأكتب الحقيقة كما شعرت بها:
عارية من المجاملة،
ثقيلة كما هي،
ومؤلمة بما يكفي لتبقى.

قد تظن أحيانًا أن النصوص موجّهة لشخصٍ ما،
لكن الحقيقة؟
إنها موجّهة لكل نسخةٍ منّا
انكسرت بصمت،
ثم تعلّمت كيف تقف
دون أن تطلب يدًا تُنقذها.

هذا الكتاب
ليس سيرة حب،
ولا بيان كراهية،
بل أثر إنسان
رأى أكثر مما يجب،
وفهم متأخرًا
أن أكثر المعارك ضجيجًا...
تحدث داخلنا بصمت كامل.

فإن أكملت القراءة،
فلا تدخل هذه الصفحات بقلبٍ خفيف،
لأن بعض الكلمات
لا تُغادر قارئها أبدًا.

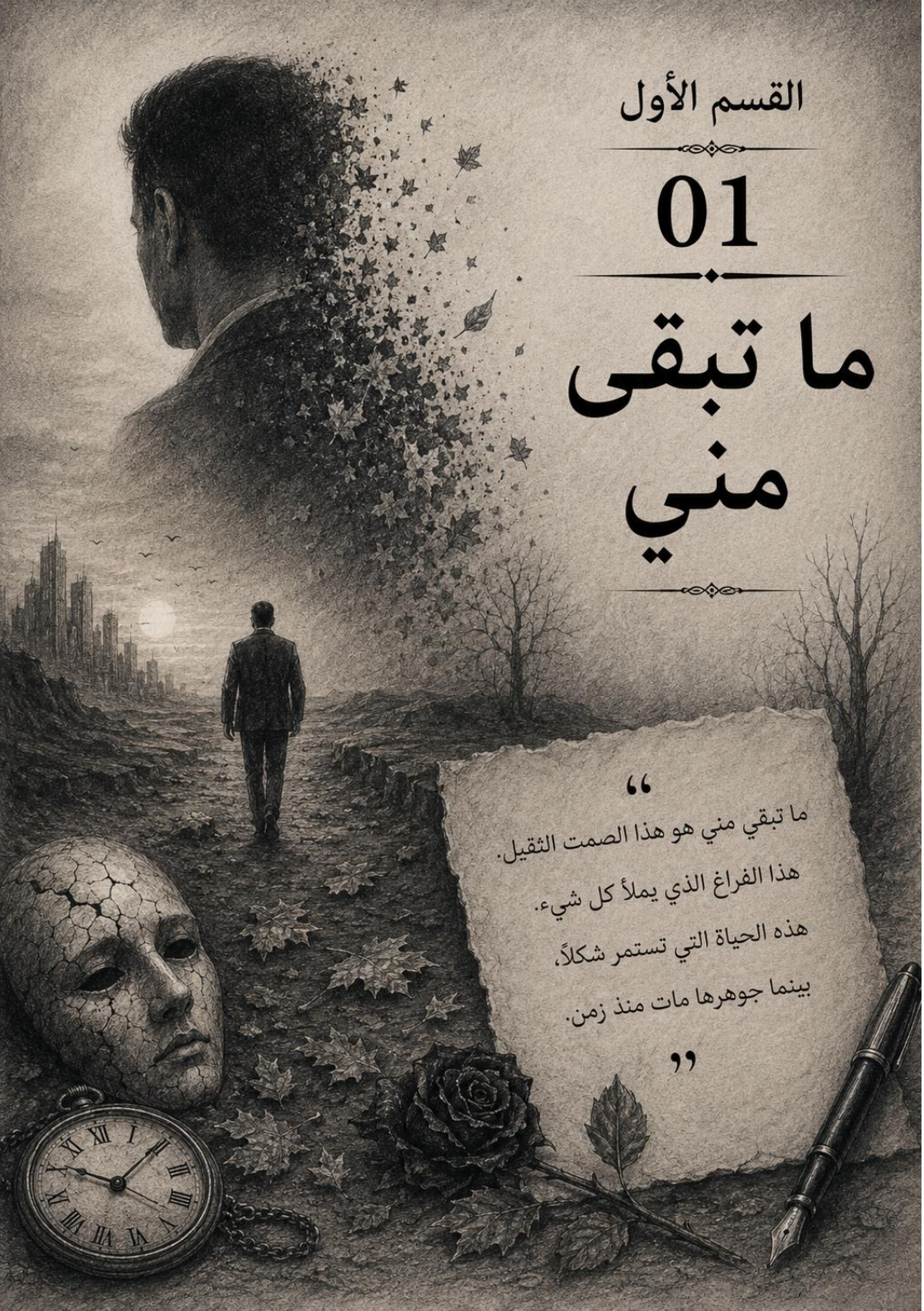
القسم الأول
01
ما تبقى مني
“
ما تبقي مني هو هذا الصمت الثقيل.
هذا الفراغ الذي يملأ كل شيء.
هذه الحياة التي تستمر شكلاً،
بينما جوهرها مات منذ زمن.
”

القسم الأول

ما تبقى مني

هنا... لن تجد إنساناً .ستجد فقط ما تبقى منه بعد أن مرّ ذلك الكيان كعاصفة صامتة، سريعة، مدروسة.

هنا ...لا دموع تسيل، لأنها نفدت منذ زمن، ولا صرخات تُسمع، لأن الحنجرة صارت صدى أجوف.

مرّ هو، استغلّ، خدع، كذب، أخفى الحقيقة طبقةً فوق طبقة، حتى لم يعد هناك ما يُؤخذ.

فلا تطمح أن تقرأ قصة بقاء أو انتصار .تأهّب لتشهد كيف تُفرغ حياة بأكملها، حتى تصير روحاً بلا جسد، وجسداً بلا روح.

ما تبقى مني؟ شظية واحدة من ذاكرة متكسرة .جرح جاف لا ينزف، لأنه لم يعد فيه دم يتدفق.

كان يأخذ بلا صوت .يأخذ الثقة وهو يبتسم، يأخذ الوقت وهو يعد بالغد، يأخذ الأحلام وهو يرسم لها صوراً زائفة.

كل كلمة قالها كانت خيطاً في نسيج كذبٍ كبير .كل اقتراب كان سرقة مقنّعة .كل صمت كان إخفاءً لحقيقة أعمق.

والآن ...أنا هنا .أقف .لكنني غائب.

لم يكن الاستغلال لحظة واحدة .كان نظاماً بطيئاً، مدروساً، يومياً.

كان يأخذ من الصباح قبل أن أستيقظ، ويسرق من المساء قبل أن أنام .يمد يده إلى داخلي بهدوء، ويخرج قطعةً من روحي دون أن أشعر في اللحظة ذاتها.

كان بارعاً في إخفاء الحقيقة .يلبس وجهاً يشبه الحنان، وآخر يشبه الصدق، وثالثاً يشبه الوفاء.

والحقيقة كانت دائماً واحدة :جوع لا يشبع، وحساب بارد لا يرحم.

أنظر إلى داخلي اليوم فلا أجد سوى فراغ.

لا غضب يشتعل، فقد احترق الوقود منذ زمن .لا حزن يغمرني، فقد جفّ البحر الذي كان يحتويه .لا أمل يراودني، فقد قُتل الوهم الذي كان يغذيه.

ما تبقى مني هو مجرد وعاء فارغ، يشبه الجسد الذي يتحرك في العالم، بينما روحه توقفت في مكان ما من الماضي، تحدّق في الفراغ الذي صارته.

كم كان ماهراً في نسج الأكاذيب.

كان يكذب بالنظرة، يكذب بالصمت، يكذب بالوعود التي تبدو صادقة لدرجة الإيمان.

كان يخفي نواياه خلف ستار من الكلمات الدافئة، ويبني جداراً من الثقة حتى أصبحتُ أنا أساعده على سرقتي.

أعطيته المفتاح بيدي، ففتح كل الأبواب، وأخذ كل ما داخلها، ثم أغلقها خلفه بهدوء.

ما تبقى مني ليس حتى ألماً واضحاً.

الألم يحتاج إلى وجود يشعر .أنا تجاوزت مرحلة الألم . صرتُ ما بعد الألم .صرتُ الفراغ الذي ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئاً.

مرّ هو مرور الكارثة الصامتة .لم يدمّر الجدران بقوة، بل سرق الأساس حتى انهار البيت من الداخل دون صوت.

في كل مرة كنتُ أظنّ أن هناك شيئاً باقياً، كان يكشف طبقة جديدة من الاستنزاف.

يأخذ من الغد قبل أن يولد، يسرق من الأمل قبل أن ينبت، يفرغ المستقبل قبل أن أصل إليه.

كان الخداع ليس كذباً واحداً، بل كذباً متراكماً، يوماً بعد يوم، حتى أصبحتُ أنا أصدّق الكذبة أكثر من الحقيقة.

الآن أقف في الركن.

لا أحد يراني، لأنني لم أعد أرى نفسي .لا أحد يسمعني، لأن صوتي صار همساً داخل فراغ.

ما تبقى مني هو ذكرى شخص كان يوماً يحلم، يضحك، يثق، يحب ...ثم مرّ ذلك الكيان فمحا كل ذلك بهدوء مدروس.

كان يأخذ الطاقة وهو يبتسم .يأخذ السلام وهو يعد بالراحة .يأخذ الثقة وهو يقسم بالوفاء.

كل شيء كان محسوباً .كل حركة كانت جزءاً من خطة طويلة الأمد .حتى عندما كان يبدو قريباً، كان في الحقيقة يقيس كم بقي فيّ ما يستحق أخذه.

ما تبقى مني الآن؟

جسد يمشي في الطريق، عيون تنظر إلى الناس دون أن تراهم، قلب ينبض لكنه لا يشعر، روح غائبة تماماً.

حياة بلا روح .هذا هو الاسم الوحيد الذي يليق بما أصبحتُه.

لم يترك لي حتى الحقد .الحقد يحتاج طاقة، والطاقة نفدت.

لم يترك لي حتى الندم .الندم يحتاج ذاتاً، والذات صارت شظايا مبعثرة.

تركني أواجه العالم بلا سلاح، بلا درع، بلا حتى رغبة في الدفاع عن نفسي.

لأنني لم أعد أملك نفسي.

مرّ هو ...وكأن الحياة كانت طبقاً مفتوحاً أمامه.

أكل منه ببطء، بذوق، بشهية لا تنتهي .ثم مسح فمه ومضى، دون أن ينظر إلى الوعاء الفارغ الذي تركه خلفه.

أنا الآن أتحدث من الركن.

من مكان لا يصل إليه أحد .أتحدث إليك أنتَ الذي قد يمرّ عليك ذات يوم كيان مشابه.

احذر .احذر الذي يأخذ بهدوء .احذر الذي يكذب بصدق .احذر الذي يخفي الحقيقة خلف ابتسامة دافئة.

فإن مرّ عليك، فلن يترك لك حتى ما تبكي به.

ما تبقى مني هو هذا الصمت الثقيل .هذا الفراغ الذي يملأ كل شيء .هذه الحياة التي تستمر شكلاً، بينما جوهرها مات منذ زمن.

حياة بلا روح ...هذا ليس عنوان كتاب .هذا واقعي الوحيد الآن.

في النهاية، لم يعد هناك ما يُؤخذ.

تركني أقف هنا، فارغاً تماماً، أنظر إلى المرآة فلا أرى سوى ظلاً باهتاً لذات كانت يوماً موجودة.

هذا ما تبقى مني.

لا شيء.

القسم الثاني
02
مرور الكارثة
“
الكوارث الحقيقية
لا تمر بالصوت العالي،
بل بالصمت المُطبق.
لا بالدمار الظاهر،
بل بالتأكل البطيء
من الداخل.
”

القسم الثاني

مرور الكارثة

لم يأتِ كعاصفة تهدّم الأبنية بصخب .جاء بهدوء مخيف .جاء كظلّ طويل يتسلل من تحت الباب، يملأ الغرفة تدريجياً حتى لا تستطيع التنفس.

هكذا مرّ .ككارثة لا تصدر صوتاً، ولا تترك أثراً واضحاً في البداية، بل تبدأ بالاقتراب الدافئ، ثم تأخذ كل شيء بهدوء مدروس.

في البداية كان يبدو كالخلاص .كلماته ناعمة، نظراته تبدو صادقة، صمته يوحي بعمق.

لم يكن يطلب شيئاً مباشرة .كان فقط يقترب ...يقترب حتى يصبح جزءاً من نسيج حياتي، ثم يبدأ في نسج خيوطه الخاصة فوق خيوطي.

كان مرور الكارثة بطيئاً، مدروساً، ممتعاً في ظاهره.

كل يوم يأخذ قطعة صغيرة .قطعة من وقتي، قطعة من طاقتي، قطعة من ثقتي بالناس، قطعة من قدرتي على التمييز بين الحقيقة والوهم.

وكنتُ أنا أعطي بكل سرور، لأنه كان يعرف كيف يجعل الأخذ يبدو عطاء.

كان يكذب بإتقان.

يكذب حين يقول «أنا هنا لك»، ويكذب حين يعد بأن لا يرحل، ويكذب حتى حين يصمت.

كل كذبة كانت تُبنى على كذبة سابقة، حتى أصبح نسيج الكذب أقوى من أي حقيقة.

وأنا كنت أصدّق، لأن الحقيقة كانت مؤلمة، والكذبة كانت مريحة.

أخفى الحقيقة ببراعة الماكرين.

أخفى ماضيه، أخفى نواياه، أخفى ما يريده فعلاً مني، أخفى حساباته الباردة خلف دفء مصطنع.

كان يرتدي قناعاً جديداً كلما اقتربتُ من رؤية وجهه الحقيقي .قناع الحب، قناع الصداقة، قناع الاحتياج، قناع الوفاء.

وكنتُ أنا أرى ما أريد أن أراه، لا ما هو موجود فعلاً.

مرور الكارثة لم يكن بالقوة، بل بالتسلل.

تسلل إلى أيامي، إلى لياليّ، إلى أفكاري، إلى قراراتي.

حتى أصبحتُ أفكر بمنطقه، وأدافع عنه أمام نفسي، وأجد له الأعذار قبل أن يطلبها.

كان هو يأخذ، وأنا كنتُ أبني له الجسور التي يعبرها.

بدأ الاستنزاف كقطرة .ثم صار نهراً .ثم صار فيضاناً.

أخذ الوقت تحت ستار «نحتاج بعضنا»، أخذ الطاقة تحت ستار «أنا متعب، ساعدني»، أخذ السلام الداخلي تحت ستار «لا تقلق، كل شيء سيكون بخير.»

وكلما أعطيته أكثر، كلما طلب أكثر بهدوء، دون أن يبدو جشعاً.

كان بارعاً في إخفاء الجوع.

جوعه لم يكن واضحاً .كان جوعاً أنيقاً، مُقنّعاً، مُغلّفاً بكلمات جميلة.

يأخذ وهو يبتسم، يسرق وهو يعد بالبقاء، يفرغ وهو يدّعي أنه يملأ.

حتى أصبحتُ أنا الذي يشعر بالذنب حين أفكر في الاحتفاظ بشيء لنفسي.

مرّ مرور الكارثة الصامتة.

لم يصرخ، لم يهدّم، لم يترك دماً على الجدران.

ترك فقط فراغاً .فراغاً عميقاً، بطيئاً، مؤلماً بطريقة لا تُوصف.

فراغاً يجعلك تنظر إلى حياتك فتدرك أنها لم تعد حياتك.

كان يعرف متى يقترب، ومتى يبتعد قليلاً، ومتى يعود بقوة أكبر.

كان يعرف علم النفس دون أن يدرسه، يعرف نقاط الضعف دون أن يسأل عنها.

كان يستغل الثغرات التي لا أعرف حتى بوجودها، ويوسّعها بهدوء حتى تصبح هوّة.

والأخطر أنه جعلني أشاركه في سرقة نفسي.

كنتُ أبرر له، أدافع عنه، أخفي عن نفسي الحقيقة، لأن مواجهة الحقيقة كانت ستكسرني.

فاخترتُ أن أكذب على نفسي معه، حتى أصبح الكذب هو الهواء الذي أتنفسه.

مرّ ...وكأن الحياة كانت له مجرد محطة.

محطة يأخذ منها ما يحتاجه، ثم يتابع طريقه.

تركني أنا أقف في المحطة، بعد أن أفرغ كل عرباتها، وبعد أن أحرق كل ما كان يمكن أن يبقى.

الآن أفهم.

كان مرور الكارثة ليس فيما أخذه، بل فيما تركه خلفه : إنساناً فارغاً، يتنفس، يتحرك، لكنه مات داخلياً منذ زمن.

هكذا تمرّ الكوارث الحقيقية .لا بالصوت العالي، بل بالصمت المُطبق.

لا بالدمار الظاهر، بل بالتآكل البطيء من الداخل.

لا بالكذب الواضح، بل بالكذب الذي يشبه الحقيقة تماماً.

ما تبقى بعد مرور الكارثة؟

ذاكرة مؤلمة، وجسد متعب، وروح غائبة.

حياة بلا روح ...تبدأ رحلتها الحقيقية بعد أن يرحل هو.

إن مرّ عليك ذات يوم كيان كهذا، فلا تنخدع بالهدوء.

الهدوء كان سلاحه الأقوى .الابتسامة كانت غطاءه . الكلمات الدافئة كانت قناعه.

فاحذر مرور الكارثة الصامتة ...فإنها لا تدمّر الحياة، بل تفرغها حتى تصير صدىً لا يُسمع.

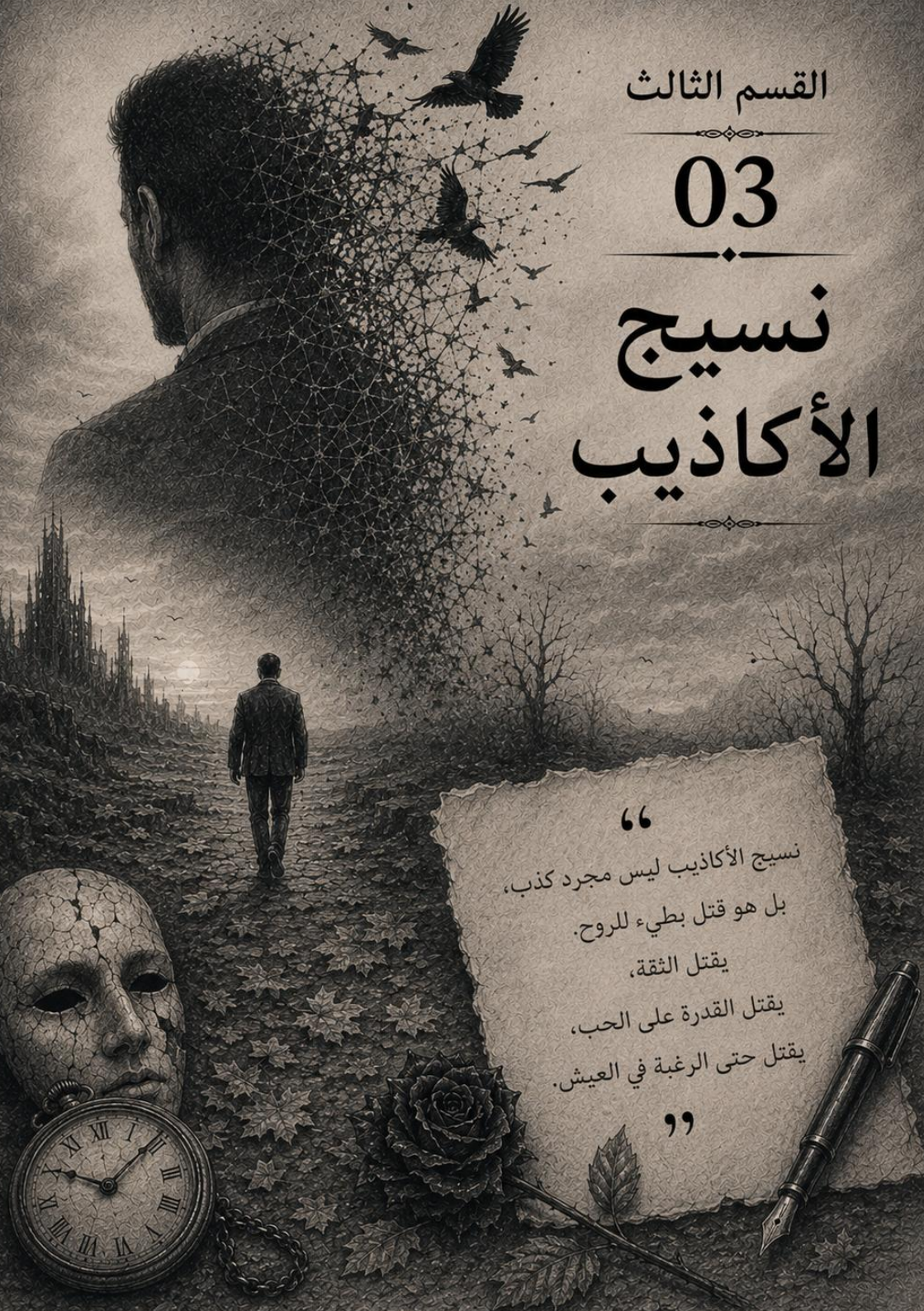
القسم الثالث
03
نسيج الأكاذيب
“
نسيج الأكاذيب ليس مجرد كذب،
بل هو قتل بطيء للروح.
يقتل الثقة،
يقتل القدرة على الحب،
يقتل حتى الرغبة في العيش.
”

القسم الثالث

نسيج الأكاذيب

كان الكذب ليس كلمة واحدة، بل نسيجاً كاملاً .نسيجاً يُحاك خيطاً خيطاً، يوماً بعد يوم، حتى أصبح أقوى من الحقيقة نفسها.

لم يكن يكذب ليهرب، كان يكذب ليبني عالماً موازياً أعيش فيه أنا، عالماً يخدم غرضه ويفرغني ببطء.

بدأ النسيج بلطف .كلمات صغيرة تبدو بريئة» .أنا مختلف عن الآخرين«، »لم أشعر بهذا من قبل«، »أنت الوحيد الذي يفهمني.«

كانت هذه الخيوط الأولى، ناعمة، دافئة، تُلصق بقلبي حتى أصبحت جزءاً منه.

ثم تعقد النسيج.

كان يكذب حين يعد بالبقاء، ويكذب حين يتظاهر بالضعف ليأخذ قوتي، ويكذب حين يخفي أنه يقيس كم بقي فيّ ما يستحقه.

كل كذبة كانت تُبنى على سابقتها، فتصبح أكثر تماسكاً، أكثر صلابة، حتى صرتُ أنا أدافع عن الكذبة أمام نفسي.

كان يخفي الحقيقة بإتقان الفنانين.

يخفي ماضيه خلف قصص مختارة، يخفي نواياه خلف نظرات عميقة، يخفي جوعه خلف عبارات الحب والاحتياج.

كان النسيج يتكون من طبقات :طبقة الابتسامة، طبقة الصمت المُوحي، طبقة الوعود الكبيرة، طبقة الغياب المبرر.

أخطر ما في نسيج الأكاذيب أنه يجعلك تشارك في حياكته.

كنتُ أنا أكمل الخيوط حين ينقصها، أجد الأعذار حين تظهر التناقضات، أقنع نفسي أن ما أراه ليس حقيقياً، لأن مواجهة الحقيقة كانت ستدمرني.

كان يكذب بالصمت أيضاً.

صمت حين يُسأل عن شيء، صمت حين تظهر الشكوك، صمت يُفسر على أنه عمق، بينما هو في الحقيقة حساب بارد.

نسيج الأكاذيب كان يمتد إلى كل شيء.

يكذب عن الماضي، يكذب عن الحاضر، يكذب عن المستقبل .يكذب حتى عن مشاعره، فيجعلها تبدو أكبر مما هي، أو أقل مما يريده فعلاً.

كلما حاولتُ أن أرى ثقوب النسيج، كان ينسج خيطاً جديداً بسرعة، يغطي الثقب، ويجعل النسيج يبدو أجمل.

كان ماهراً في تحويل الشك إلى ذنب، والسؤال إلى اتهام، والرغبة في الحقيقة إلى عدم ثقة.

كان الكذب يتغذى على نفسي.

كلما أعطيته قطعة من الثقة، أعطاه ذلك قوة ليكذب أكثر .كلما صدّقته، ازداد النسيج كثافة.

حتى أصبحتُ أعيش داخل الكذبة، وأصبحت الحقيقة غريبة ومخيفة.

في بعض الليالي كنتُ أشعر بالتصدع.

أرى تناقضاً، أسمع كلمة لا تتطابق، ألاحظ غياباً غير مبرر.

لكنه كان يعود في اللحظة المناسبة، يُصلح الشق بخيط جديد، بكلمة دافئة، بنظرة تبدو صادقة، فأعود أنا إلى داخل النسيج.

نسيج الأكاذيب لم يكن مجرد كذب، بل كان عالماً كاملاً.

عالماً له قوانينه، له أبطاله، له قصصه .عالماً جعلني أعيش فيه، بينما هو يستنزف عالمي الحقيقي.

كان يخفي الحقيقة حتى عن نفسه أحياناً.

ربما صدّق بعض كذبه، أو ربما كان يعرف تماماً ما يفعل .المهم أنه استمر في الحياكة، خيطاً بعد خيط، يوماً بعد يوم.

والأكثر مرارة أنني ساعدته.

ساعدته على نسج الكذبة الكبيرة، بثقتي، بحبي، بصبري، بإعطائه الفرصة تلو الأخرى.

كنتُ أنا الخيط الأبيض الذي ينسجه في نسيجه الأسود.

حين بدأ النسيج يتمزق أخيراً، لم يكن التمزق سريعاً.

كان بطيئاً، مؤلماً، كأن كل خيط يُسحب من لحمي.

كل كذبة تُكشف كانت تترك جرحاً جديداً، وكل حقيقة تظهر كانت تذكّرني بكم كنتُ أعمى.

الآن أرى النسيج كاملاً.

أرى كيف كان جميلاً من الخارج، مُرعباً من الداخل .
أرى كيف كان يغطي الفراغ، ويخفي الجوع، ويُجمّل الاستغلال.

نسيج الأكاذيب ليس مجرد كذب، بل هو قتل بطيء للروح.

يقتل الثقة، يقتل القدرة على الحب، يقتل القدرة على التصديق، يقتل حتى الرغبة في العيش.

كم كنتُ أتمنى لو كان الكذب واضحاً.

لو كان صريحاً، لو كان قبيحاً من أول يوم .لكن جماله كان في إتقانه، في نعومته، في قدرته على أن يبدو حقيقة.

اليوم أقف خارج النسيج.

أنظر إليه من بعيد، فتراه خرقة ممزقة، مصنوعة من كذب متراكم.

لكنه ترك أثراً داخلياً، ندوباً لا تُمحى، وفراغاً لا يُملأ.

هذا هو نسيج الأكاذيب :يُبنى ببطء، يُعاش بكامل الإيمان، ثم ينهار فجأة، ويترك صاحبه عارياً أمام نفسه.

ما تبقى بعد نسيج الأكاذيب؟

شك دائم في كل كلمة، خوف من كل اقتراب، فراغ لا يُشبع، وحياة بلا روح تستمر في التنفس فقط.

إن مرّ عليك ذات يوم من يحيك مثل هذا النسيج، فلا تنتظر حتى يكتمل.

الكذب لا يبدأ كبيراً، يبدأ بخيط صغير، ثم يأكل كل شيء.

أنا الآن أتحدث من داخل الخرقة الممزقة.

أتحدث لأنني لم أعد أملك ما أخسره .النسيج أخذ كل شيء، والحقيقة التي تأخرت جاءت متأخرة جداً.

نسيج الأكاذيب انتهى، لكن آثاره باقية.

باقية في كل نظرة ألقيها على العالم، في كل صمت أعيشه، في كل يوم أمرّ به وأنا أشعر أنني لستُ هنا.

هذا ما فعله نسيج الأكاذيب :حوّل حياة كاملة إلى قصة كاذبة، ثم مزّقها، وترك صاحبه يعيش بلا روح.

القسم الرابع
04
أقنعة السر
“
بعض الكيانات
لا تأتي لتعيش معك،
بل تأتي لتأكلك.
”

القسم الرابع

أقنعة السر

لم يكن له وجه واحد .كان له أقنعة لا تُحصى .كل قناع يُلبس في الوقت المناسب، يُنزع في اللحظة المناسبة، ويُستبدل بآخر أكثر إقناعاً.

أقنعة السر ليست مجرد تمويه، بل هي فن الاختباء في العلن.

أول قناع كان قناع الحنان.

نظرات دافئة، كلمات تبدو كأنها تخرج من أعماق الروح، لمسة تبدو صادقة.

تحت هذا القناع كان يخفي حسابات باردة، يدرس نقاط الضعف، يرسم الخطط للاستنزاف القادم.

ثم جاء قناع الضعف.

كان يظهر أحياناً مكسوراً، محتاجاً، وحيداً.

فأعطيته من قوتي، من وقتي، من وجودي.

كان القناع بارعاً جداً، لدرجة أنني شعرتُ بالذنب حين أفكر في حماية نفسي.

قناع الوفاء كان من أخطر الأقنعة.

»أنا لن أرحل«، »أنت مختلف«، »هذا الذي بيننا حقيقي.«

كان يلبس هذا القناع كلما شعر بأن الشكوك بدأت تظهر، فيعيد بناء الثقة المتهالكة، ويستمر في النهب.

كان هناك قناع الصمت العميق.

صمت يوحي بالحكمة، صمت يبدو كأنه يحمل أسراراً كبيرة، صمت يجعلك أنت من يملأ الفراغ بتخيلاتك.

تحت هذا الصمت كان يخفي فراغاً أكبر، وجوعاً أعمق.

أقنعة السر كانت تتغير بسرعة مذهلة.

في الصباح قناع المحب، في الظهيرة قناع الصديق، في المساء قناع المحتاج، وفي الغياب قناع الغامض الذي يُشتاق إليه.

كان يخفي وجهه الحقيقي بإتقان لا يُضاهى.

الوجه الحقيقي كان وجهاً لا يعرف الشبع، وجهاً يرى الآخرين كموارد، وجهاً بارداً لا يهتم إلا بما يمكن أخذه.

كلما اقتربتُ من إزالة قناع، كان يرتدي قناعاً جديداً أكثر جمالاً.

كان يعرف أن الحقيقة لو ظهرت فجأة لهربتُ، فكان يُظهرها قطرة قطرة، مخففة، مُجمّلة، حتى أعتاد عليها.

أقنعة السر لم تكن تُخفي فقط النوايا، بل كانت تُخفي الواقع كاملاً.

يخفي أنه يستنزفني، يخفي أنه يستخدمني، يخفي أنه سيتركني حين ينتهي المورد.

كان قناع «القدر» من أكثر الأقنعة قسوة.

نحن مقدَّر لنا أن نكون معًا، «هذا مكتوب»، «لا نستطيع الهروب من بعضنا.«بهذا القناع جعلني أتحمل المزيد، أسامح المزيد، أعطي المزيد.

تحت كل قناع كان هناك سرّ أعمق.

سرّ أنه لا يحب، سرّ أنه لا يبقى، سرّ أنه يرى فيّ فقط ما يمكن أخذه.

وكان يدافع عن هذه الأسرار بكل قوة أقنعته.

كنتُ أنا أساعده على ارتداء الأقنعة.

كنتُ أصدّقها، أدافع عنها، أزينها في عقلي، لأن رؤية الوجه الحقيقي كانت ستكسرني تماماً.

أقنعة السر كانت تُلبس لي أنا بالتحديد.

كان يعرف ما أريد أن أراه، فيعطيني إياه، مُغلّفاً، مُجمّلاً، مُزيّناً.

حين بدأت الأقنعة تسقط واحدة تلو الأخرى، لم يكن السقوط سريعاً.

كان مؤلماً، كأن كل قناع يُنزع كان ينزع معه جزءاً من جلدي.

كل حقيقة ظهرت كانت أقسى من سابقتها.

الآن أرى كل الأقنعة مرصوصة أمامي.

أرى جمالها المصطنع، وأرى الفراغ الذي كانت تخفيه .أرى براعتها، وأرى قسوتها.

أقنعة السر لا تُخفي شخصاً فقط، بل تُخفي حقيقة وجودية مرعبة :أن بعض الكيانات لا تأتي لتعيش معك، بل تأتي لتأكلك.

كان يغير الأقنعة بسلاسة مخيفة.

لا تناقض واضح، لا ارتباك، فقط انتقال سلس من قناع إلى آخر، كأنه ممثل بارع في مسرحية طويلة.

والأكثر مأساوية أنني أحببت بعض هذه الأقنعة.

أحببت قناع الحنان، أحببت قناع الوفاء، أحببت قناع الروح التوأم.

وحين سقطت، شعرتُ أنني فقدتُ أشخاصاً متعددين في شخص واحد.

أقنعة السر علمتني درساً قاسياً:

أن الجمال المفرط في الكلمات، والدفء المفاجئ، والاقتراب السريع، غالباً ما يكون قناعاً لسرّ مدمر.

اليوم أقف أمام المرآة، أنظر إلى وجهي الذي فقد بريقه.

أرى فيه آثار كل قناع ارتداه هو، وآثار كل مرة صدّقته فيها.

أقنعة السر لم تمت.

ما زالت تعيش في ذاكرتي، تظهر في كوابيسي، وتجعلني أشك في كل وجه جديد أراه.

هذا ما تفعله أقنعة السر :تسرق هويتك، تسرق قدرتك على الثقة، وتتركك تواجه العالم وأنت لا تثق حتى بنفسك.

إن رأيتَ يوماً أقنعة جميلة تُلبس بإتقان، فلا تنبهر.

انظر خلفها .ابحث عن الوجه الحقيقي .فغالباً ما يكون الوجه الحقيقي... فارغاً.

أقنعة السر انتهت، لكن السر بقي.

سر أنني لم أعد أعرف من أنا، بعد أن عشتُ طويلاً خلف أقنعة شخص آخر.

في حضرة أقنعة السر، تُفرغ الروح، وتُسرق الحياة، وتبقى أنتَ ...حياة بلا روح.

القسم الخامس
05
استنزاف الروح
“
استنزاف الروح
هو أبشع أنواع القتل.
لا يترك جثة،
بل يترك جسدًا حيًا
يتنفس،
لكنه ميت من الداخل.
”

القسم الخامس

استنزاف الروح

لم يكن الاستنزاف لحظة واحدة مدوية .كان بطيئاً، منهجياً، يومياً .كان يأكل من الروح كما تأكل الدودة من الثمرة، من الداخل، بهدوء، حتى يبقى القشرة فقط.

بدأ الاستنزاف بالطاقة.

كان يأخذ ساعاتي، أيامي، لياليّ، تحت ستار «أحتاجك«، »لا أستطيع بدونك«، »أنت وحدك تفهمني.«

فأعطيته، حتى أصبحتُ أنا الذي يشعر بالذنب إذا احتفظتُ بشيء لنفسي.

ثم انتقل إلى استنزاف المشاعر.

يطلب الحب، يطلب الاهتمام، يطلب التضحية، ويأخذها كلها دون أن يردّ شيئاً.

كان يفرغ قلبي من الدفء، ويترك مكانه فراغاً بارداً، ثم يطلب المزيد من الدفء ليملأ فراغه هو.

استنزاف الروح كان فنّاً.

كان يأخذ الأمل قطرة قطرة، يسرق السلام لحظة لحظة، يستنزف الثقة يوماً بعد يوم.

كلما شعر بأنني بدأت أستعيد شيئاً، عاد بقناع جديد، بكلمة دافئة، بوعد كاذب، فيُعيد الاستنزاف من جديد.

كان يستنزف حتى قدرتي على الفرح.

كل لحظة سعادة كنتُ أعيشها، كان يحوّلها إلى ذنب، أو إلى التزام تجاهه.

فأصبح الفرح نفسه عبئاً، والراحة شعوراً بالخيانة.

استنزاف الروح لم يكن مرئياً.

لا جروح ظاهرة، لا دماء، لا صراخ.

فقط تعب داخلي يزداد يوماً بعد يوم، شعور دائم بالنقص، شعور أنني أعطي أكثر مما أملك، حتى أصبحتُ أعطي من لا شيء.

كان يأخذ من مستقبلي قبل أن أصل إليه.

يستنزف أحلامي بأن يجعلها تدور حوله، يستنزف طموحاتي بأن يجعلها تخدم وجوده، يستنزف حتى قدري بأن يجعله مرتبطاً به.

مع الوقت، أصبح الاستنزاف جزءاً من الروتين.

أستيقظ متعباً، أنام متعباً، أعيش متعباً، دون أن أعرف سبب التعب الحقيقي.

كان السبب هو أنه يأخذ من روحي كل يوم، بصمت.

استنزاف الروح جعلني أفقد القدرة على الشعور.

لم أعد أحزن بحزن حقيقي، ولم أعد أفرح بفرح حقيقي.

كل شيء أصبح رمادياً، مُبهماً، كأن روحي تحولت إلى دخان يتصاعد ببطء.

كان بارعاً في جعل الاستنزاف يبدو حباً.

»أعطني المزيد لأنني أحبك«، »تضحّ لأن هذا ما يفعله من يهتم.«

فكنتُ أنا أقنع نفسي أن الإرهاق الذي أشعر به هو دليل على عمق المشاعر.

ثم جاء استنزاف الذات.

بدأتُ أفقد هويتي، أفقد صوتي الداخلي، أفقد القدرة على معرفة ما أريده أنا.

كل شيء أصبح يدور حوله، حول احتياجاته، حول أقنعته، حول كذبه.

استنزاف الروح كان يحدث في الصمت أيضاً.

في الغياب، في الانتظار، في الشك، في محاولة فهم ما يحدث.

كل دقيقة أقضيها أفكر فيه كانت دقيقة تُؤخذ من روحي.

مع الوقت أصبحتُ أعيش لأعطي.

أعيش لأرضي، لأملأ، لأدعم، حتى أصبحتُ أنا نفسي فارغاً تماماً.

كان الاستنزاف يصل إلى العظم.

يأخذ حتى الرغبة في الاستيقاظ، يأخذ القدرة على التخطيط، يأخذ حتى الشعور بالذات.

الآن أفهم أن استنزاف الروح هو أبشع أنواع القتل.

لا يترك جثة، بل يترك جسداً حياً يمشي، يتكلم، يتنفس، لكنه ميت من الداخل.

استنزاف الروح يجعلك تكره نفسك.

تكره ضعفك، تكره تصديقك، تكره قدرتك على العطاء اللامتناهي.

كان يستنزفني وهو يبتسم.

يستنزفني وهو يعد بالبقاء .يستنزفني وهو يخفي الحقيقة.

وكنتُ أنا أشكر له ذلك.

حين وصل الاستنزاف إلى ذروته، لم يعد هناك ما يؤخذ.

فمضى.

تركني فارغاً، مُستنزَفاً، بلا روح.

استنزاف الروح لا ينتهي برحيله.

يستمر داخلك، يجعلك تشك في كل شيء، يجعلك تخاف من كل اقتراب جديد، يجعلك تعيش حياة بلا لون.

اليوم أقف هنا، روحي مستنزفة تماماً.

لا أبكي، لأن الدموع نفدت .لا أغضب، لأن الغضب يحتاج طاقة.

أقف فقط ...فارغاً.

هذا هو استنزاف الروح :أن يأخذ منك حتى القدرة على أن تكون أنت.

إن شعرتَ يوماً أنك تُفرغ تدريجياً، فلا تنتظر.

الاستنزاف لا يرحم، ولا يشبع، ولا يعود ما أُخذ.

روحي الآن أرض قاحلة.

لا زرع فيها، لا ماء، لا حياة.

فقط ذكرى ما كانت عليه قبل مرور الكارثة.

استنزاف الروح هو الجريمة الكبرى.

لأنه لا يقتل الجسد، بل يقتل المعنى، يقتل الجوهر، يقتل ما يجعلك إنساناً.

في حضرة استنزاف الروح، تصبح الحياة شكلاً فارغاً، تنفساً بلا روح، وجوداً بلا وجود.

القسم السادس

06

سرقة الذات

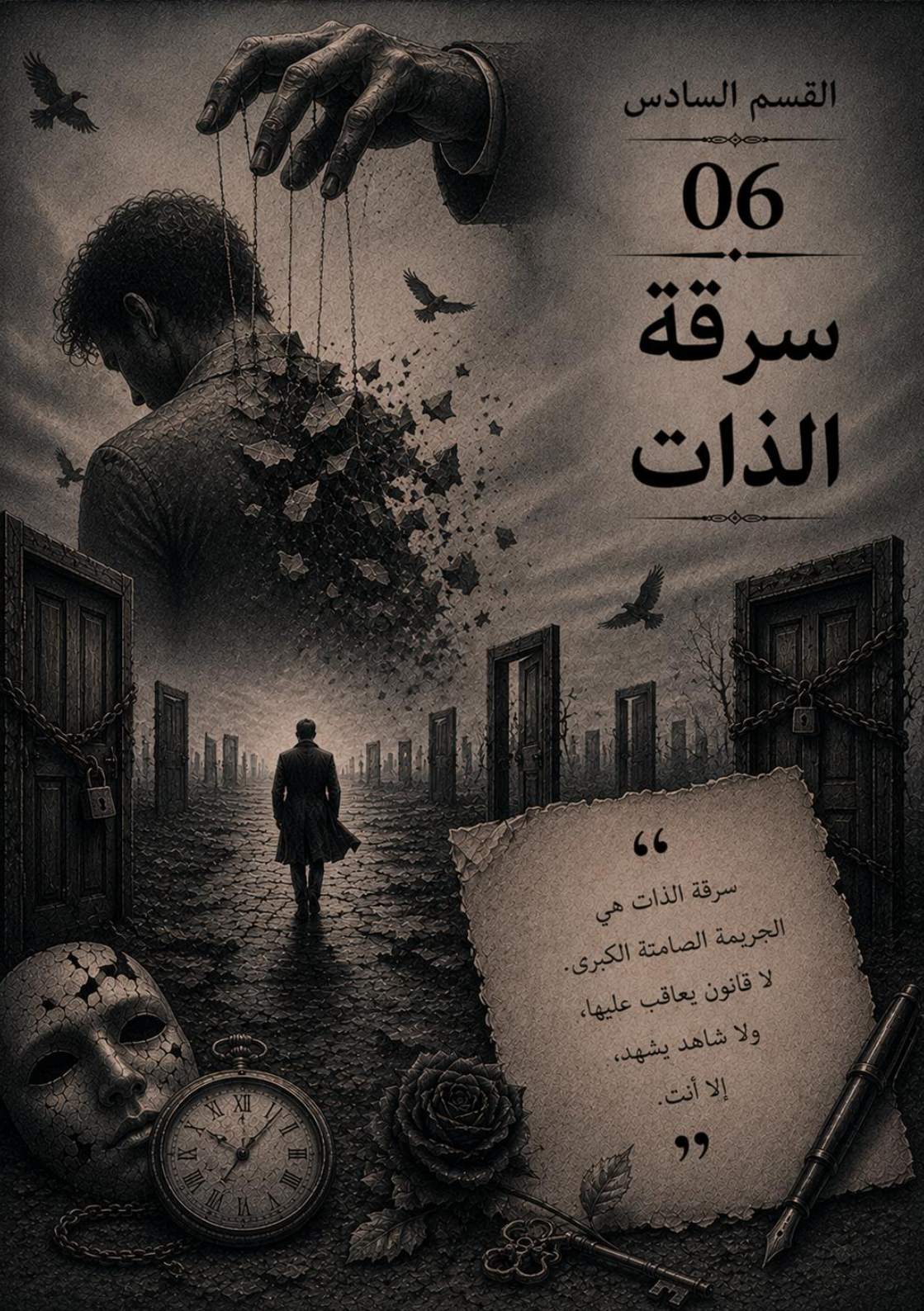

القسم السادس

سرقة الذات

لم تكن سرقة مادية واضحة .لم يأخذ مالاً أو شيئاً يُرى بالعين .سرق الذات نفسها .سرق مني «أنا«، قطعة قطعة، حتى لم يعد هناك «أنا» يُسرق.

بدأت سرقة الذات بهدوء.

سرق صوتي الداخلي، فأصبحتُ أسمع صوته هو أكثر مما أسمع صوتي .سرق أفكاري، فأصبحتُ أفكر بمنطقه، أدافع عن وجوده، أبرر غيابه.

سرق أحلامي.

كانت أحلامي تتسع للمستقبل، فحوّلها إلى أحلام تدور حوله فقط .كل طموح كان له لون، كل هدف كان مرتبطاً بوجوده.

حتى أصبح مستقبلي مرهوناً به، ثم سرقه ومضى.

سرق قيمتي الذاتية.

كان يجعلني أشعر أن قيمتي مرتبطة بمدى عطائي له . كلما أعطيته أكثر، شعرتُ أنني أكثر قيمة .وكلما احتفظتُ بشيء لنفسي، شعرتُ بالذنب والنقص.

سرق هويتي ببطء.

بدأتُ أفقد ما أحبه، ما أؤمن به، ما أريد أن أكونه .كل شيء أصبح يُقاس بمدى رضاه، بمدى استمرار وجوده، بمدى قدرتي على إرضائه.

كان يسرق الذات دون أن ألاحظ.

في كل مرة كنتُ أتنازل فيها عن رأيي لأرضيه، كان يسرق جزءاً من استقلالي .في كل مرة كنتُ أصمت فيها عن ألمي، كان يسرق جزءاً من كرامتي.

سرقة الذات كانت الأكثر وحشية.

لأنها سرقة لا يمكن استرجاعها بسهولة .يسرق منك قدرتك على أن تكون أنت، فيتركك نسخة باهتة، مُعدّلة، مُفرغة من جوهرها.

كان يسرق حتى ذكرياتي.

يُعيد تفسير الماضي بطريقته، يجعلني أشك في ما عشته، يجعلني أصدّق روايته عن حياتي أكثر من روايتي أنا.

سرق قدرتي على الاختيار.

أصبحتُ أختار ما يريده هو، أذهب حيث يريد، أصمت حين يريد الصمت، أعطي حين يريد العطاء.

حتى أصبح «أنا» مجرد أداة في يده.

كان يسرق الفرح الشخصي.

كل لحظة سعادة كنتُ أعيشها لوحدي، كان يجعلها تبدو أنانية .كل هواية، كل لحظة هدوء، كل فضاء خاص، كان يغزوه حتى يفرغه.

سرقة الذات جعلتني أصبح غريباً عن نفسي.

أنظر في المرآة فلا أعرف من أرى .أسمع صوتي فأشعر أنه صوت شخص آخر .أفكر في مستقبلي فلا أجد فيه شيئاً يخصني.

كان يسرق حتى الغضب.

كلما غضبتُ، كان يحوّل غضبي إلى ذنبي أنا» .أنت حساس«، »أنت لا تفهم«، »أنت تدمر ما بيننا.«

فأعود أعتذر عن غضبي من سرقته.

مع الوقت، لم يعد لي حدود.

لا حدود شخصية، لا حدود عاطفية، لا حدود زمنية . كل شيء أصبح ملكاً له، أو في خدمته.

سرقة الذات هي السرقة الكبرى.

لأنها تسرق ما لا يُرى، ما لا يُقاس، ما لا يُسترد بسهولة :جوهرك، روحك، معنى وجودك.

كان يسرق وهو يدّعي أنه يعطي.

يعطي كلمات، يعطي وعوداً، يعطي أقنعة، ويأخذ الذات كاملة.

الآن أبحث عن نفسي في كل مكان، فلا أجدها.

سرقت الذات، فأصبحتُ أعيش كظلّ لشخص لم يعد موجوداً.

سرقة الذات تجعلك تكره المرآة.

لأنك ترى فيها شخصاً لم تعد تعرفه، شخصاً مُستعمَلاً، مُستنزَفاً، مُسرُوقاً.

كم حاولتُ استعادة ما سُرق.

حاولتُ أن أتذكر من كنتُ، حاولتُ أن أعيد بناء الحدود، حاولتُ أن أسمع صوتي مرة أخرى.

لكن السرقة كانت عميقة جداً.

سرقة الذات لا تنتهي برحيله.

تبقى داخلك، ثقب أسود يبتلع كل محاولة للعودة إلى الذات.

اليوم أنا شخص آخر.

لستُ الذي كنتُه قبل مرور الكارثة .سرقت الذات، فأصبحتُ نسخة فارغة، باهتة، غير مكتملة.

هذا هو معنى سرقة الذات :أن تعيش وأنت لا تملك نفسك .أن تتنفس وأنت لا تملك روحك .أن تمشي في الحياة وأنت لا تملك خطواتك.

إن شعرتَ يوماً أنك تفقد نفسك تدريجياً، فلا تتردد.

سرقة الذات تبدأ بخيط صغير، ثم تأكل كل شيء.

أنا الآن أبحث عن بقايا ذاتي في الركام.

أجمع الشظايا، أحاول لصقها، لكنها لا تعود كما كانت . السرقة غيّرت شكلها إلى الأبد.

سرقة الذات هي الجريمة الصامتة الكبرى.

لا قانون يعاقب عليها، ولا شاهد يشهد، إلا أنت ... وتبقى أنت الضحية والشهود والحكم.

في نهاية سرقة الذات، لا يبقى سوى حياة بلا روح، تسير في العالم، وتبحث عن شيء لم يعد موجوداً : نفسها.

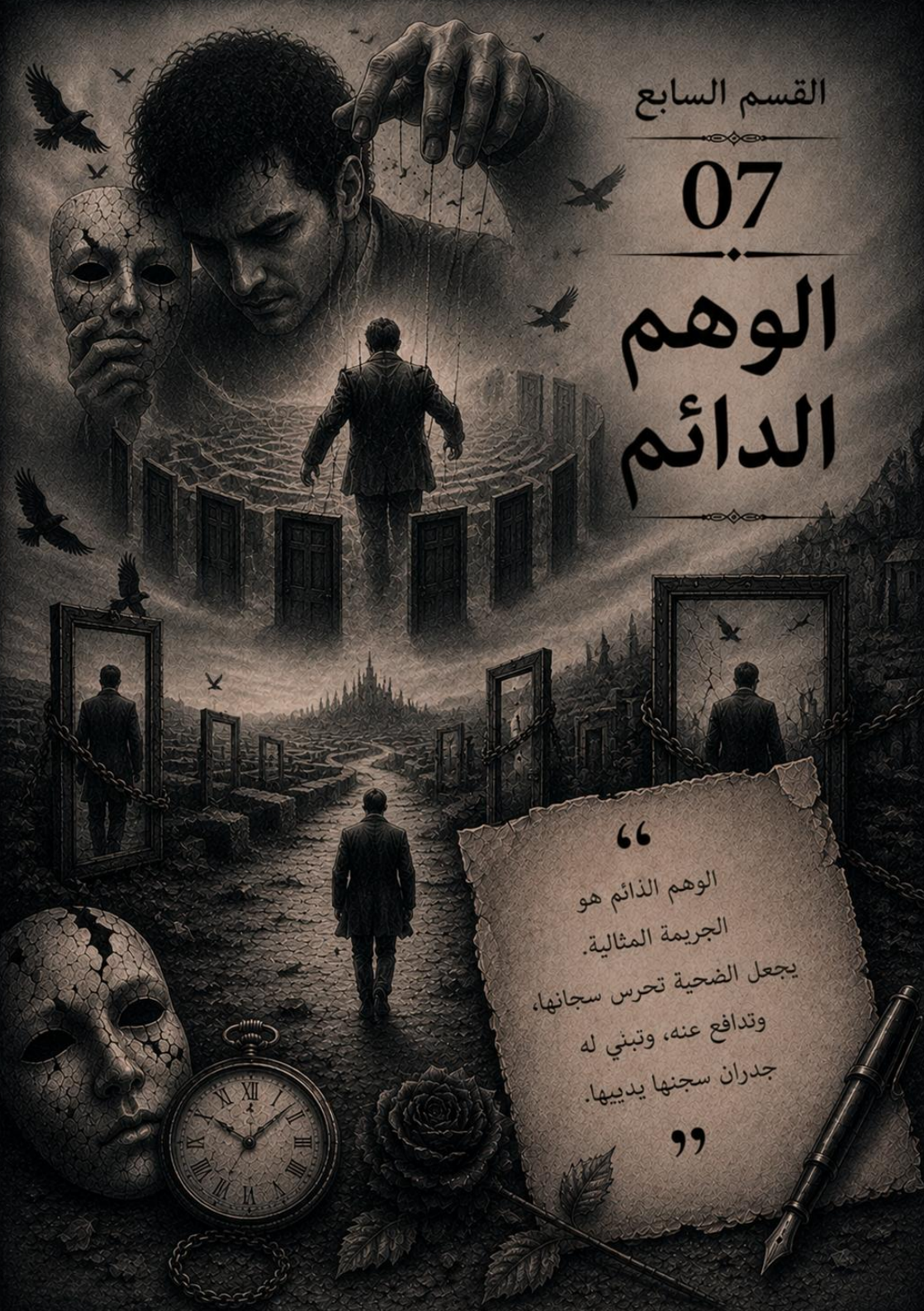
القسم السابع
07
الوهم الدائم
“
الوهم الذائم هو
الجريمة المثالية.
يجعل الضحية تحرس سجانها،
وتدافع عنه، وتبني له
جدران سجنها يدييها.
”

القسم السابع

الوهم الدائم

كان الوهم ليس لحظة، بل نظاماً كاملاً يُدار بدقة .وهم دائم، مستمر، يُجدَّد يومياً حتى يصبح أقوى من الواقع نفسه.

لم يكن يريد أن أرى الحقيقة، كان يريد أن أعيش داخل الوهم، لأن الوهم هو الذي يسمح له بالاستمرار في الاستغلال.

بنى الوهم الدائم ببراعة المهندسين.

»هذا مؤقت«، »الأيام القادمة أفضل«، »نحن نبني شيئاً كبيراً.«

كان يزرع هذه البذور كل يوم، فأرويها أنا بأملي، فتنمو وتكبر حتى تغطي الشمس الحقيقية.

الوهم الدائم كان يعتمد على المستقبل.

كان يعد بغدٍ لم يكن موجوداً، يرسم صوراً لمستقبل مشترك، يبني قصوراً من كلمات في الهواء.

وكنتُ أنا أسكن هذه القصور، أدافع عنها، أزين جدرانها، بينما هو يسرق الأساس من تحتها.

كان يحافظ على الوهم بالتوازن الدقيق.

يغيب قليلاً فيعود الشك، ثم يعود بقوة فيُعيد بناء الوهم أقوى .يبتعد فيثير الخوف، ثم يقترب فيُعيد الأمان الكاذب.

الوهم الدائم كان يتغذى على الخوف.

خوف الفقدان، خوف الوحدة، خوف أن أكون مخطئاً في تصديقي.

كان يستخدم هذا الخوف كوقود، يذكّرني به دون أن يصرّح، فأتمسك بالوهم أكثر.

كان يصنع ذكريات وهمية.

يجعل لحظات عادية تبدو استثنائية، يجعل كلمات فارغة تبدو عميقة، يجعل غياباً مدروساً يبدو مؤلماً وحميماً.

الوهم الدائم جعلني أعيش في زمن موازٍ.

زمن لا يوجد فيه خيانة، لا استغلال، لا أقنعة .كنتُ أعيش في هذا الزمن، بينما الزمن الحقيقي ينهب روحي.

كان يحافظ على الوهم بالكذب المستمر.

كل يوم كذبة جديدة تدعم القديمة، كل أسبوع وعود تُجدَّد الأمل، كل شهر صورة مستقبلية تُبقي الوهم حياً.

الوهم الدائم كان له قوانينه الخاصة.

قانون أن كل غياب له سبب نبيل، قانون أن كل تأخير هو اختبار للصبر، قانون أن كل جرح هو فرصة للحب الأعمق.

كنتُ أنا أحمي الوهم بكل قوتي.

أدافع عنه أمام نفسي، أجد له الأعذار، أغلق عينيّ عن التناقضات، لأن انهيار الوهم كان يعني مواجهة الفراغ الكامل.

كان الوهم يتجدد في كل ليلة.

قبل النوم يزرع بذرة أمل جديدة، فأنام وأنا أحلم بالغد الذي وعدني به، بينما هو يحسب كم استطاع أن يأخذ اليوم.

الوهم الدائم جعل الزمن يفقد معناه.

لم يعد هناك حاضر، كان كل شيء «قريباً»، «قريباً جداً»، «بعد قليل.»

فبقيتُ معلّقاً في هذا «القريباً» الذي لم يأتِ أبداً.

كان يستخدم حبي ضدي ليُبقي الوهم.

«إذا أحببتني حقاً فستنتظر»، «إذا أحببتني حقاً فلن تشك»، «إذا أحببتني حقاً ستثق.»

فكنتُ أثبت حبي بتصديق الوهم.

الوهم الدائم كان قاسياً على الروح.

يطيل الألم، يؤجل المواجهة، يبقي الجرح مفتوحاً تحت ستار الشفاء القادم.

مع الوقت أصبح الوهم أعزّ عليّ من الحقيقة.

كنتُ أفضّل أن أعيش في الكذبة الجميلة، على أن أواجه الواقع المرعب.

كان يحافظ على الوهم حتى في غيابه.

يترك أثراً، رسالة، وعداً صغيراً، يكفي ليبقي الوهم مشتعلًا حتى عودته.

الوهم الدائم هو أخطر أنواع الخداع.

لأنه لا يأخذ منك المادي فقط، بل يأخذ سنوات حياتك، ويبيعها لك على أنها استثمار.

حين بدأ الوهم يتصدع أخيراً، شعرتُ بألم لم أعرفه من قبل.

ألم انهيار عالم كامل بنيته داخل رأسي، عالم وهمي دام سنوات.

الآن أرى كيف كان الوهم الدائم سجناً.

سجن جميل، مريح، مُزيَّن بالأمل، لكنه سجن في النهاية.

الوهم الدائم علمتني أن أخطر الكذبات هي تلك التي نصدّقها بقلبنا، لا تلك التي نسمعها بأذنينا فقط.

كان الوهم يحميني من الانهيار، لكنه في الوقت نفسه كان يُسرّع الانهيار.

يؤجله، ثم يجعله أقسى حين يأتي.

اليوم أعيش خارج الوهم.

لكنني أعيش بلا شيء .الوهم أخذ كل شيء، والحقيقة لم تعطِني شيئاً سوى الفراغ.

الوهم الدائم هو الجريمة المثالية.

يجعل الضحية تحرس سجّانها، وتدافع عنه، وتبني له جدران سجنها بيديها.

إن عاش الوهم طويلاً داخلك، فسيصعب عليك أن تعيش بدونـه.

حتى بعد انهياره، تبقى تفتش عن بقاياه في كل زاوية.

في نهاية الوهم الدائم، لا يبقى سوى حياة بلا روح، تتذكر زمناً كانت تعيش فيه داخل حلم لم يكن يوماً لها.

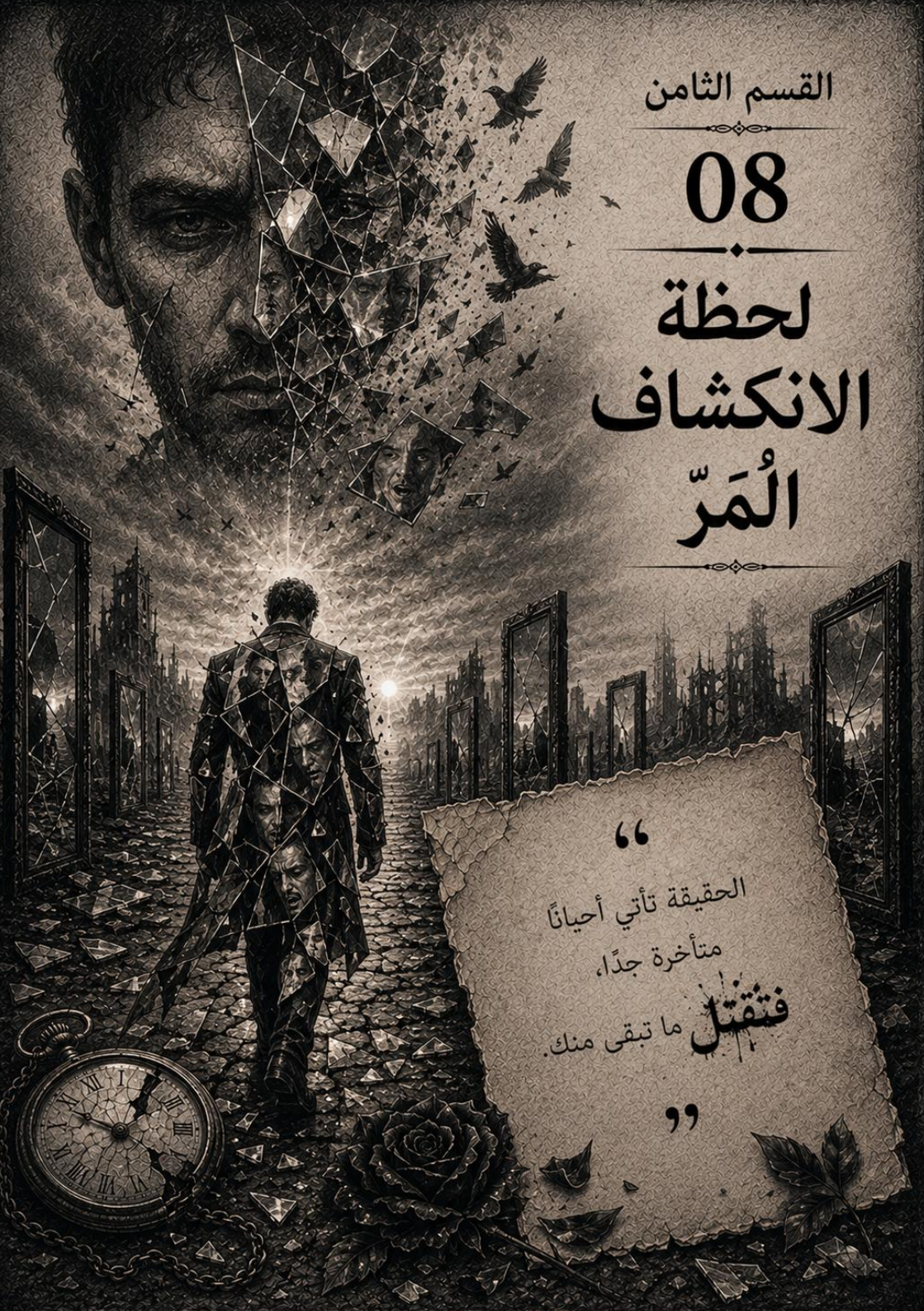
القسم الثامن
08
لحظة الانكشاف المُرّ
“
الحقيقة تأتي أحيانًا
متأخرة جدًا،
فتقتل ما تبقى منك.
”

القسم الثامن

لحظة الانكشاف المُر

لم تأتِ لحظة الانكشاف فجأة كصاعقة .جاءت بطيئة، قاسية، كسكين يُدخل تدريجياً في الجرح القديم.

كانت اللحظة التي ينهار فيها الوهم الدائم، فتتحطم كل الأقنعة دفعة واحدة، وتظهر الحقيقة عارية، باردة، لا رحمة فيها.

بدأت اللحظة بثقب صغير في نسيج الأكاذيب.

كلمة زلّت، تناقض ظهر فجأة، غياب لم يعد له عذر مقنع .ثقب صغير، لكنه كان كافياً ليدخل منه نور الحقيقة المُر.

في تلك اللحظة، شعرتُ أن الأرض تنهار تحت قدميّ.

كل ما بنيته على مدى السنوات، كل الوعود، كل الأحلام المشتركة، كل الذكريات التي ظننتها حقيقية ... بدأت تتفتت أمام عينيّ كرماد.

انكشف الاستغلال بوضوح مرعب.

رأيتُ كيف كان كل اقتراب محسوباً، كيف كانت كل كلمة دافئة جزءاً من خطة، كيف كان حبه مجرد أداة للوصول إلى ما يريده.

رأيتُ نفسي كمورد، لا كإنسان.

كان الانكشاف مؤلماً لأنه جاء متأخراً.

متأخراً جداً .بعد أن أعطيتُ كل شيء، بعد أن استنزفتُ روحي، بعد أن سرقت ذاتي ووهبتها له بكل سرور.

في تلك اللحظة، سمعتُ كل كذبة تتردد في رأسي بصوت مختلف.

كل «أحبك» صارت سخرية، كل «لن أرحل» صار خيانة، كل «أنت مختلف» صار خديعة مدروسة.

انكشفت أقنعة السر واحدة تلو الأخرى.

القناع الدافئ سقط، فظهر البرود .قناع الوفاء سقط، فظهر الحساب البارد .قناع الحب سقط، فظهر الجوع الذي لا يشبع.

كانت اللحظة مرّة لأنني رأيتُ نفسي فيها.

رأيتُ كم كنتُ أعمى، كم كنتُ أساعده على خداعي، كم كنتُ أدافع عن الوهم بكل ما أملك.

انكشف السر الأكبر:

لم يكن هناك «نحن» يوماً .كان هناك «هو» يأخذ، و«أنا» يُفرغ .كان هناك مستغِل ومُستغَل، ولا شيء آخر.

في لحظة الانكشاف، شعرتُ بالغثيان الوجودي.

غثيان من نفسي، من تصديقي، من ضعفي، من قدرتي على أن أُحب من ينهبني.

كانت الحقيقة أقسى مما تخيلت.

لم يكن يحبني ولو قليلاً، لم يكن يحترمني ولو قليلاً، كان يرى فيّ فقط ما يمكن أن يؤخذ منه.

انكشف كيف كان يضحك داخلياً من سذاجتي.

كل مرة كنتُ أصدّق فيها كذبة جديدة، كان يحقق انتصاراً صغيراً .كل مرة كنتُ أعطي فيها المزيد، كان يحسب الربح.

لحظة الانكشاف لم تأتني مرة واحدة.

جاءت على دفعات، كل دفعة أقسى من سابقتها، حتى أصبحتُ أتمنى لو بقيتُ داخل الوهم إلى الأبد.

في تلك اللحظة، انهارت كل الأعذار التي كنتُ أصنعها له.

»هو مختلف«، »هو يمرّ بظروف«، »هو يحبني بطريقته ...«كلها سقطت، فظهرت الحقيقة عارية : استغلال بحت.

انكشف أنني كنتُ أعيش مع شخص لم يكن موجوداً أصلاً.

كنتُ أحب قناعاً، أثق بوهم، أبني مستقبلاً على رمال متحركة.

كانت اللحظة مرّة لأنها أجبرتني على مواجهة نفسي.

مواجهة الضعف، مواجهة الغباء العاطفي، مواجهة السنوات الضائعة التي لا تعود.

في لحظة الانكشاف المُر، شعرتُ أن جزءاً مني مات.

مات الأمل، مات الثقة، ماتت القدرة على الإيمان بأي شيء جميل.

رأيتُ كيف استُنزفت روحي حتى آخر قطرة.

رأيتُ كيف سُرقت ذاتي، كيف بُني الوهم، كيف حُيك نسيج الكذب ...ورأيتُ أنني ساعدتُ في كل ذلك.

الانكشاف لم يأتِ بالتحرر، بل جاء بالانهيار.

انهيار أعمق، أقسى، لأنه جاء بعد أن لم يعد هناك ما يُبنى عليه.

الآن أعيش في ما بعد الانكشاف.

عالم بارد، فارغ، لا ألوان فيه، لا طعم، لا رائحة .عالم حياة بلا روح.

لحظة الانكشاف المُر علمتني أن بعض الحقائق تأتي متأخرة جداً، فتقتل ما تبقى منك.

لم أعد أستطيع حتى البكاء.

الدموع جفت، والألم تحول إلى فراغ ثقيل يسكن الصدر.

في تلك اللحظة المُرة، فهمتُ أن الكارثة لم تكن فيما أخذه، بل فيما تركه :إنساناً مكسوراً لا يستطيع أن يُصلح نفسه.

الانكشاف انتهى، لكنه ترك ندوباً لا تُشفى.

ندوباً في الذاكرة، في الثقة، في القدرة على العيش.

هذا هو الانكشاف المُر :أن ترى الحقيقة كاملة، بعد أن تكون قد دفعت الثمن كاملاً، وبعد أن لم يعد لديك ما تدفعه.

القسم التاسع

09

الانهيار الوجودي

“الانهيار الوجودي هو الموت دون أن تموت.”

القسم التاسع

الانـهيار الوجودي

وصلتُ أخيراً إلى القاع .ليس القاع الذي يُكتب عنه في الكتب، بل قاع أعمق، أسود، لا قرار له .انهيار وجودي كامل، لا صوت فيه، لا دموع، فقط فراغ مطلق يبتلع كل شيء.

الانهيار لم يكن لحظة، بل كان نتيجة طبيعية لكل ما سبق .بعد استنزاف الروح، وبعد سرقة الذات، وبعد انهيار الوهم، لم يعد هناك ما يمسك بي من الداخل.

أصبحتُ أنظر إلى نفسي فلا أرى أحداً.

جسد يتحرك، عيون تنظر، فم يتكلم، لكن داخل هذا كله... لا أحد .فراغ ينظر إلى فراغ.

فقدتُ الرغبة في كل شيء.

لا رغبة في الاستيقاظ، لا رغبة في النوم، لا رغبة في الحياة، ولا رغبة حتى في الموت .فقط وجود بلا معنى، ثقيل، بارد، ميت.

الانهيار الوجودي يجعلك تتساءل :من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ ولماذا أستمر في التنفس؟

لا إجابات .فقط صدى الأسئلة يتردد في الفراغ.

لم يعد هناك غضب، ولا حزن، ولا حتى يأس.

تجاوزتُ كل هذه المراحل .وصلتُ إلى مرحلة ما بعد اليأس، حيث حتى اليأس يحتاج إلى وجود من يشعر به.

أصبحتُ أعيش كشبح في حياتي الخاصة.

أرى الناس يضحكون، يحبون، يحلمون، فأشعر أنني أنتمي إلى عالم آخر، عالم الموتى الأحياء.

الانهيار الوجودي سرق حتى القدرة على البكاء.

الدموع جفت منذ زمن، والصدر أصبح كهفاً لا يصدّر إلا صمتاً ثقيلاً.

أصبح الزمن عدواً.

كل يوم يمرّ يذكّرني بما خسرته، بما سُرق مني، بما لم يعد موجوداً .والأيام تطول، والليالي تطول، والفراغ يتسع.

فقدتُ القدرة على الارتباط بأي شيء.

لا أستطيع حبّ أحد، لا أستطيع الثقة بأحد، لا أستطيع حتى أن أحبّ نفسي .كل شيء أصبح بعيداً، غريباً، غير ذي معنى.

في أعماق الانهيار، أصبحتُ أتحدث مع نفسي بلا صوت.

»ما بقي منك؟» «لا شيء» «.لماذا تستمر؟» «لا أدري«.

حوار أجوف بين شخصين ماتا منذ زمن.

الانهيار جعلني أرى العالم كما هو :مسرح كبير من الأكاذيب، ناس يرتدون أقنعة، يبنون أوهاماً، يستنزفون بعضهم بعضاً.

لم يعد لديّ مستقبل.

المستقبل كان وهماً سُرق، والحاضر أصبح عقاباً، والماضي جرح لا يندمل.

أصبحتُ أعيش في الركن الأكثر ظلاماً من نفسي.

ركن لا يصل إليه نور، لا أمل، لا صوت .ركن الموت الداخلي.

الانهيار الوجودي هو الموت دون أن تموت.

تظلّ جسدك يمشي، لكن روحك تكون قد فارقتك منذ زمن، وتتركك تواجه الحياة كجثة حية.

لا أشعر بالبرد، ولا بالحر، ولا بالجوع، ولا بالشبع.

كل شيء أصبح رمادياً، مُبهماً، لا طعم له.

في أعماق هذا الانهيار، فهمتُ أن بعض الجراح لا تشفى، بل تتحول إلى هوية جديدة :هوية الإنسان المُفرغ.

أصبحتُ أخشى الصمت، وأخشى الضجيج في الوقت نفسه.

كل شيء يذكّرني بالفراغ الذي أصبحتُه.

الانهيار الوجودي يجعلك تتساءل إن كنتَ موجوداً أصلاً.

هل كنتُ حقيقياً يوماً؟ أم كنتُ مجرد وعاء ينتظر من يفرغه؟

لم يبقَ شيء يُؤخذ.

حتى الألم نفد، حتى الذكرى أصبحت ثقيلة، حتى الرغبة في النهوض ماتت.

أنا الآن في أعماق الركن.

ركن مظلم، بارد، لا مخرج منه .حياة بلا روح في أقصى صورها.

الانهيار لم يترك لي حتى قصة.

لا قصة انتصار، لا قصة صمود، فقط قصة إنسان سُرق حتى آخر ذرة من وجوده.

في هذا الانهيار، أصبحتُ جزءاً من الصمت الكوني.

صمت لا يُسمع، وجود لا يُرى، حياة لا تُعاش.

هذا هو الانهيار الوجودي الحقيقي :أن تكون موجوداً، ولا تكون.

ولا أمل في الخروج .ولا نور في النهاية .فقط هذا ... فراغ أبدي.

القسم العاشر
10
في حضرة العدم
“
في حضرة العدم،
لا يبقى من الإنسان
سوى صدى
روحه القديمة.
”

القسم العاشر

في حضرة العدم

ها أنا الآن .في حضرة العدم .ليس العدم الذي يُكتب عنه في الفلسفات، بل العدم الذي يُعاش، يُتنفس، يُمشى به في الطرقات، ويُنام تحت جلده.

عدم مطلق .لا بداية له، ولا نهاية .فقط حضور ثقيل، صامت، أبدي.

ما الذي بقي بعد كل ذلك؟ بعد مرور الكارثة، وبعد نسيج الأكاذيب، وبعد سقوط الأقنعة، وبعد استنزاف الروح، وبعد سرقة الذات، وبعد انهيار الوهم، وبعد الانهيار الوجودي؟

بقي العدم .نقياً .صافياً .لا يقبل الشفقة ولا يعترف بالأمل.

العدم ليس غياباً .العدم هو حضور الغياب .هو أن تكون موجوداً جسدياً، بينما أنت غائب تماماً عن نفسك .تنظر

إلى يديك فترى أدوات فارغة، تنظر إلى عينيك في المرآة فترى عيون شخص مات منذ سنوات.

في حضرة العدم، يفقد الزمن معناه .الأيام ليست أياماً، بل تكراراً للفراغ .الليالي ليست راحة، بل فرصة لمواجهة الفراغ دون تشتيت.

الصباح يأتي ليذكّرك أنك ما زلتَ موجوداً في عالم لم تعد تنتمي إليه.

العدم فلسفة حية .ليس تأملاً في كتاب، بل واقعاً يسكن عظامك .هو إجابة قاسية على كل الأسئلة الوجودية :من أنا؟ لا أحد .لماذا أنا هنا؟ لا سبب .ما معنى الحياة؟ لا معنى.

في هذا العدم، أصبحتُ أفهم أن الاستغلال لم يكن مجرد فعل بشري .كان تجسيداً لوجودية مرعبة :أن بعض الكيانات لا تأتي إلا لتأكل الآخرين، ثم تمضي، فتاركة وراءها فراغاً يصبح هوية الضحية الجديدة.

العدم يأكل الذكريات أيضاً .لا يمحوها، بل يجعلها ثقيلة، مؤلمة، غريبة .كأنها ذكريات شخص آخر عاش في جسدك زمناً ثم رحل.

هنا، في حضرة العدم، لا كره .الكره يحتاج طاقة .ولا حنين .الحنين يحتاج قلباً .ولا أمل .الأمل كذبة سرقت منذ زمن.

العدم له طعمه الخاص .طعم الرماد البارد في الفم، طعم الهواء الثقيل في الصدر، طعم الصمت الذي يصمّ الآذان من الداخل.

أتأمل في وجودي فأرى أنني أصبحتُ وعاءً .وعاءً سرق منه كل محتواه، ثم غُسل، ثم تُرك فارغاً في زاوية الدنيا .لا أحد يريده بعد الآن، ولا هو يريد أحداً.

في حضرة العدم، يصبح السؤال الفلسفي الأكبر عبثياً : »هل الحياة تستحق أن تُعاش؟«

الإجابة ليست نعم أو لا .الإجابة هي» :ما الحياة؟«

العدم يجعلك تدرك أن كل البشر يحملون إمكانية أن يصبحوا كارثة لآخرين .وأن بعضهم يختار هذه الإمكانية بكامل إرادته، ببرود، بإتقان، بفن.

أنا الآن لا أعيش .أنا أستمر .استمرار آلي، بلا هدف، بلا فرح، بلا ألم حاد .فقط وجود رمادي، مستمر كالساعة المعطلة التي ما زالت تدق.

في أعماق هذا العدم، أصبحتُ أرى الإنسانية كلها من منظور مختلف .مجرد كائنات تأكل وتُؤكل، تستغل وتُستغل، تكذب وتُخدع، ثم تموت وتترك فراغاً آخر.

العدم له صوته .صوت همس خافت داخل الرأس» :لا فائدة» .«لا معنى» .«لا عودة» .«لا شيء.«

سرقة الذات لم تكن سرقة مؤقتة .كانت تحولاً وجودياً .من «كائن» إلى «فراغ يمشي على قدمين.«

في حضرة العدم، حتى الموت يبدو ترفاً .لأن الموت ينهي شيئاً، بينما أنا أستمر في لا شيء.

أتساءل أحياناً :هل كان هناك «أنا» يوماً؟ أم كنتُ مجرد مسرح ينتظر ممثلاً يرتدي أقنعة ويسرق الديكور؟

العدم يعلمك الصبر المرعب .صبر الذي لا ينتظر شيئاً، لأنه يعرف أن لا شيء قادم.

هنا لا توجد دروس .لا حكمة .لا نهوض .فقط قبول مرير بأن بعض الجراح تنتهي بتحويلك إلى شخص آخر تماماً، شخص فارغ.

في أعماق هذا القسم الأخير، أدرك أن الحياة بلا روح ليست مرحلة، بل هي النتيجة النهائية لبعض اللقاءات . لقاءات مع كيانات تأتي لتأكل، ثم تمضي، فتاركة وراءها تماثيل حية من الفراغ.

العدم له جمال قاسٍ .جمال الصدق المطلق .لا أكاذيب بعد الآن، لا أقنعة، لا أوهام .فقط أنت والفراغ، وجهًا لوجه، إلى الأبد.

أنا لا أكتب هذا لأنقذ أحداً .أكتبه لأشهد .لأشهد على أن إنساناً كان يوماً موجوداً، ثم مرّت عليه كارثة هادئة، فخرج منها حياة بلا روح.

في حضرة العدم، تصبح الفلسفة كلها عبثية .كامو، نيتشه، سارتر ...كلهم يتحدثون عن الفراغ، بينما أنا أعيشه، ألبسه، أتنفسه.

لا نهاية سعيدة .لا تحول .لا سيادة .فقط هذا .ركن داكن، روح مفقودة، وجود معلّق بين كونه وبين عدمه.

العدم يجعلك تبتسم ابتسامة باهتة أحياناً .ابتسامة من يعرف أن اللعبة انتهت، وأن لا أحد فاز، بل خسر الجميع ...وأنت خسرت أكثر.

هذا هو المصير النهائي لمن مرّت عليه الكارثة الصامتة :أن يصبح شاهداً حيّاً على قدرته على الفراغ.

في النهاية، لا أطلب الرحمة، ولا أنتظر العدل، ولا أحلم بالشفاء.

أقبل فقط .أقبل أن أكون هذا ...حياة بلا روح، في حضرة العدم، إلى الأبد.

والآن، أغلق الصفحات .ليس لأن القصة انتهت، بل لأن لا قصة أصلاً .فقط فراغ يروي نفسه.

إلى من قد يقرأ هذا يوماً :إذا مرّ عليك كيان كهذا، فاهرب .ليس منه، بل من إمكانية أن تصبح مثله ... فراغاً يمشي.

وأنا ...أبقى هنا .في الركن .في حضرة العدم .حياة بلا روح .تماماً.

الخاتمة

وهنا... لا تنتهي الحكاية.

لأن بعض الحكايات لا تنتهي، بل تتوقف فقط عندما لا يبقى فينا ما يرويها.

لم أخرج من كل هذا منتصرًا،
ولا أقف الآن لأعلن نجاة،
ولا أملك قصة شفاء تُرضي من يبحث عن نهاية مريحة.

أنا فقط... ما تبقّى.

بقايا صوت تعلّم أن الصمت ليس هدوءًا،
وبقايا روح فهمت متأخرًا أن بعض القرب كان استنزافًا،
وبقايا إنسان أدرك أن أسوأ ما قد يُسرق منك... هو أنت.

لم يعد يؤلمني ما حدث،
لأن الألم يحتاج شيئًا حيًا ليشعر...
وأنا تجاوزت تلك المرحلة منذ زمن.

لكنني أحمل الندوب،
لا كدليل ضعف،
بل كأثر لما كان... وما لم يعد.

هذا الكتاب لم يكن محاولة للنجاة،
بل شهادة على الغرق.
ولم يكن بحثًا عن تعاطف،
بل كشفًا لما يحدث حين يُؤخذ كل شيء... بصمت.

وإن سألتني الآن:
هل بقي شيء؟

سأقول:
نعم... بقي الوعي.

وهو أثقل من الألم،
وأقسى من الخذلان،
لكنه الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن سرقتها.

فإن خرجت من هذه الصفحات،
ولم تعد كما كنت...
فهذا طبيعي.

بعض الكلمات لا تُقرأ...
بل تترك أثرًا يشبهك،
ثم تمضي.

أما أنا...

فلا زلت هنا،
لا أبحث عن عودة،
ولا أنتظر شيئًا،

فقط...
أعيش بما تبقّى مني.

الفهرس

مقدمة 2

افتتاحية الكتاب 5

القسم الأول — ما تبقى مني 9

القسم الثاني — مرور الكارثة 16

القسم الثالث — نسيج الأكاذيب 23

القسم الرابع — أقنعة السر 31

القسم الخامس — استنزاف الروح 38

القسم السادس — سرقة الذات 46

القسم السابع — الوهم الدائم 53

القسم الثامن — لحظة الانكشاف المُر 60

القسم التاسع — الانهيار الوجودي 67

القسم العاشر — في حضرة العدم..... 67

الخاتمة 82

محمد ابو الفتوح

محمد ابو الفتوح

حقوق النشر محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل أو وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو تصويرية أو تسجيلية أو خلافه إلا بإذن كتابي من المؤلف.